

البراجميسم لوليم جيمس

يقدم
الدكتور محمد فتحى الشنيطى

أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة - فرع الخرطوم

اتجاه جديد جعل للفلسفة الأمريكية مكانة مرموقة بين
سائر الفلسفات المعاصرة .

وقد كان لإجادة « جيمس » للغتين الألمانية والفرنسية
فضلاً عن الإنجليزية ، ولما قام به من رحلات عديدة
فى أوروبا ، أثر بعيد المدى فى اتساع معارفه وعمق دراساته .
وقد اكتسب باخلاصه وسحر شخصيته صداقات أئمة
المفكرين والفلاسفة فى أوروبا رغم تفاوت السن أحياناً
بينه وبينهم ، نذكر منهم - على سبيل المثال لا الحصر -
« لارنس ماخ » فى ألمانيا و « شارل رينوفييه » و « هنرى
برجسون » فى فرنسا و « هنرى سيدجويك » فى
إنجلترا (١) . وأفضى هذا إلى انتشار أفكار « جيمس »
وترجمت كتبه إلى أهم اللغات فى مختلف أنحاء العالم (٢)

(١) راجع عن اتصالات « ولیم جیمس » وصداقاته فى
أوروبا وإنجلترا فى الفترة بين سنتي ١٨٨٢ - ١٨٨٣ ، ص
١٥٠ - ١٦٠ من :

R. Perry, The Thought and Character of W. James.

(٢) ترجمت إلى اللغة العربية الكتب التالية : « إرادة الاعتقاد »
ترجمة الدكتور محمود حب الله . و « أحاديث إلى المعلمين فى علم
النفس » ترجمة الدكتور محمد على العريان . و « بعض مشكلات الفلسفة »
ترجمة الدكتور محمد فتحى الشنيطى .

لا يكاد الباحث يتجه إلى دراسة الفلسفة الأمريكية
الكلاسيكية (١) حتى يواجهه اسم « ولیم جیمس » ،
فهو أكثر الأسماء اقتراناً بها وأشدّها دلالة عليها . وتمثل
حياة « جيمس » من سنة ١٨٤٢ فترة انقطع فيها
الفكر الأمريكى عن أن يكون تابعاً للفكر الفلسفى
الأوروبى ، وبدأ يستقل بمعلوماته ويشق طريقه وحده ،
وغدت له بذلك طرافة لم تكن له من قبل .

وقد ساهم « جيمس » مساهمة أصيلة فى تطور الفكر
الفلسفى الأمريكى بحيث يجوز لنا أن نقول إن فلسفته
فلسفة أمريكية قلباً وقالباً . فلئن كان ثمة أفكار أوروبية
فيها ، فقد انصهرت فى بوتقة البراجميسم وتبلورت فى

(١) يذهب بعض الباحثين إلى أن للفلسفة الأمريكية فترة
كلاسيكية تماثل الفترة الكلاسيكية عند اليونان (من ديمقريطس حتى
أرسطو) ، وفترة الفلسفة المسيحية (من أبيلار إلى القديس
توماس الأكويني ودونز سكوت) ، والفلسفة الانجلوسكسونية
(من يكون إلى هيوم) ، والفلسفة الألمانية (من كنت إلى هيجل) .
وأعلام الفلسفة الأمريكية الكلاسيكية ستة لهم شهرتهم العالمية وهم :
« تشارلز ساندرز بيرس » و « ولیم جیمس » و « جوزيا رويس »
و « جورج سانتايانا » و « جون ديوى » و « ألفرد نورث هوبز »
أرجع إلى ص ٨ من

Max H. Fisch : Classic American Philosophers
(N.Y. 19٥1)

وقد حقق «وليم جيمس» في ميدان علم النفس عملاً عظيماً واكتسب شهرة دولية. ولو كان كتابه «أصول علم النفس» هو كل ما كتب في حياته ، لاكتسب به الخلود. بيد أنه انطلق إلى ميدان الفلسفة ، وآراؤه الفلسفية تنبع من دراساته النفسانية . وقد تأثرت آراؤه الفلسفية دون ريب بالبيئة العقلية التي انبثت فيها الأفكار التطورية .

وقد اخترنا كتاب البراجمية لتلخصه في سلسلة تراث الإنسانية ولأن هذا الكتاب يحوى أسس فلسفة «جيمس» كلها، فبتلخيص أفكاره الأساسية نأمل أن نرسم للقارئ لوحة معبرة لهذه الفلسفة تعكس أضواءها وظلالها .

حياته ومؤلفاته :

ولد «وليم جيمس» بنيويورك في يناير سنة ١٨٤٢ لأبوين أمريكيين كان أكبر أبنائهما الخمسة ، يليه شقيقه «هنرى جيمس» وهو من نوابع أدباء أمريكا في القرن العشرين، ومن أشهر كتاب القصة والرواية. وتمتاز كتاباته بالتحليل السيكولوجى للشخصيات التي يعرضها فضلاً عن العبارة الطليّة والبيان الساحر . أما سائر إخوة «جيمس» فلم يكن لهم من الشهرة حظ أو نصيب .

وتنحدر أسرة «جيمس» من أجداد عصامين اتجه بعضهم للزراعة فأفلحوا الأرض واستثمروها وجنوا من ذلك ثروة طائلة، وبرع بعضهم في التجارة فتنقلوا بين بقاع مختلفة وازدهرت تجارتهم ودرت عليهم ربحاً وفيراً . أما «هنرى جيمس» الأب فقد ألم به في حياته حادث مؤسف في حريق اقتضاه بتر إحدى ساقيه ، وخلف في نفسه جرحاً غائراً لم يندمل قط . ويذهب البعض إلى أن ثمة صلة بين اهتمام الأب بالمشكلات الفلسفية وانصرافه إلى التأملات الدينية وبين

ذلك الحادث (١) . وقد كانت حياة الأب «هنرى» حياة قلقة اعتلّ فيها بدنه وتعلمت روحه ، فأنفق سنوات عديدة منها في انتقال متصل ورحيل لا يقطع بين العالم الجديد وبين القارة الأوروبية ، وكان لذلك أثره في اضطراب دراسة أبنائه في المدرسة وتربيتهم في المنزل .

وينتمى الأب إلى ذلك الرعيل الأول من الحكماء الذين تكتشفهم هالة من غموض ، والذين كانت تزخر بهم أمريكا في مستهل نهضتها . فهم صوفيون يمتازون باستقلال الشخصية وعمق النظرة ، وهم رهبان في الحياة العملية يعتزّون بفرديتهم اعتزازاً لا يفوقه حد ، يقدسون الكرامة ويثبتون في نفوس أبنائهم معاني الإباء والشهامة (٢) . وقد اجتمعت للأب ثقافة دينية دسمة إذ درس اللاهوت في جامعة «برنستون» ، بيد أنه بقدر حبه للدين كان كرهه لرجالها ، فكثيراً ما أشار إليهم في سخرية مرّة وتناولهم بالنقد اللاذع وبخاصة في أخريات أيامه .

وفي سنة ١٨٤٤ ، وكان «وليم جيمس» في العام الثانى من عمره ، أهدى أحد الأصدقاء إلى أبيه كتب الفيلسوف السويدي «سويد نبرج» Swedenborg (٣) . وقد كان لعكوف الأب على هذه المؤلفات وتذوقه لما تزخر به من تأملات دينية وخواطر فلسفية ، فضل توجيهه إلى حياة روحية خالصة كادت تنسيه علّة بدنه . وقد هبّ ذلك لابنه «وليم» بيئة ثقافية عوضته عما انتاب

(١) راجع في ذلك : دائرة المعارف البريطانية - ط ١٩٥٣ ص ٨٨٣ - ٨٨٥ .

(٢) أنظر ص ٣٩ - ٤٠ من كتاب سانتايانا «Santayana : Character and Opinion in the United States (N. Y. 1956)»

(٣) «إمانويل سوينبرج» (١٦٨٨ - ١٧٧٢) . فيلسوف دينى صوفى ينادى بالمعرفة الروحية المباشرة ، وقد انتشر مذهبه وشاع في لندن منذ سنة ١٧٨٣ ، وكثيراً ما أطلق عليه الكنيسة الجديدة .

الطب من مزاولة المهنة ، فقصى فترة طويلة امتدت إلى سنة ١٨٧٢ بين الشفاء والمرض . انصرف فيها إلى القراءة والتأمل ؛ ومن ومضات ذهنه كان يسجل ما تجود به قريحته من خواطر .

ووجدت فلسفة «رينوفيه»^(١) صدقاً عميقاً في نفس «جيمس» . وقد كان تشربه بدعوة هذا الفيلسوف الفرنسي المحدد بمثل نقطة تحول بارزة في تفكيره . فقد وجد في أحاديثه عن حرية الإرادة بلساً لجراح نفسه ، فعقد العزم على أن يكون أول فعل إرادى له أن يعتقد في حرية الإرادة . وبدأت له الفلسفات المغلقة التي تفرض على الفكر قيود الإلزام والجبر فلسفات تثقل علينا عبء الحياة : ألا ينبغي أن تكون الحرية عنواناً على الفكر الواعى والنفس المتفتحة ، وبشارةً للتقدم في جميع ميادين الحياة . وحلّت عقدة «جيمس» وانطلقت حيويته فكانت آراؤه الثورية في علم النفس والفلسفة ، وكان ذلك الجهد الرائع الذي لم ين عن بذله طوال حياته من أجل إعلاء شأن الإنسان وتبيان طبيعة الواقع .

وفي سنة ١٨٧٢ عين «وليم جيمس» مدرساً للفسولوجيا في جامعة «هارفارد» وظل يحاضر في طلابه أربعة أعوام . بيد أن شغفه كان متجهاً إلى تعمق أسرار النفس وكشف حجبها والوقوف على طاقاتها وإمكاناتها ولذلك سرعان ما انصرف إلى علم النفس ولكنه أقبل عليه من طريق جديد ، طريق العلم التجريبي . فعلى

(١) «شارل رينوفيه» Charles Renouvier (١٨١٥ - ١٩٠٣) تأثر إلى حد كبير «بليسنز» و«كنط» . وأخص ما تتميز به دعوته الفلسفية الحملة على المذاهب المغلقة وانكار كل ما هو متعال كالشيء في ذاته والمطلق ، والاشددة بالحرية والاعتزاز بالشخصية الإنسانية ، ومن أهم مؤلفاته : «مآزق الميتافيزيقا البحتة» .

Les Dilemmes de la Métaphysique pure.

سنة ١٩٠١ : و «مذهب الشخصية» Le Personnalisme .

سنة ١٩٠٣ .

تعليمه من قلق وانقطاع ، لانتقاله مع الأسرة بين نيويورك في أمريكا وبولونيا في فرنسا وجنيف في سويسره . وكثيراً ما كان «وليم» يقضى أمتع الأوقات في مناقشات شائقة مع أبيه حين يجتمعان على طعام أو على شاي ، وكانت مناقشات مثمرة تدور حول مشكلات تثيرها قراءات الأب ومطالعات الابن .

وحين بلغ «وليم جيمس» الثامنة عشرة أحس من نفسه شغفاً نحو الفن ورغبة ملحة إلى التعبير بالرسم . فأقبل على دراسة الأعمال الفنية دراسة متعمقة ولكنه سئمها بعد حين وإن ظلت طبيعة الفنان ملازمة له في علمه وفي فلسفته على حد سواء . وقد انصرف إلى دراسة العلوم الطبيعية فالتحق في السنة التالية بمدرسة «لورانس» بجامعة «هارفارد» وانصببت دراساته على الكيمياء والتشريح وما يتصل بهما . وما لبث أن غادر هذه المدرسة إلى مدرسة الطب بنفس الجامعة . بيد أنه قطع دراسته في هذه المدرسة أيضاً ليصبح أستاذه العلامة «لويس أجاسيز» في رحلة استكشافية إلى منطقة الأمازون . وهناك ساءت صحته وثقلت عليه أعباء واجباته كمساعد لأستاذه فقفل راجعاً يصل ما انقطع من دراساته في مدرسة الطب بجامعة «هارفارد» .

وفي العام الدراسي ١٨٦٧ - ١٨٦٨ سافر إلى ألمانيا ليستمع إلى محاضرات «هلمهلتز» و«برنارد» وغيرهما من العلماء الذين ذاعت شهرتهم إذ ذاك ، وكان يعجب بمناهجهم إعجابه بمنهج أستاذه السويسري «أجاسيز» وفي عين الوقت أخذ يطالع بنهم كتباً عديدة في الفلسفة وعلم النفس . وقد كان «وليم جيمس» منذ أن راهق شاباً حساساً رقيقاً كثيراً ما تنتابه العلة ويحيط به المرض ، وفي تلك الفترة التي قضاه في ألمانيا سقط ضحية انهيار عصبي لاحقته فيه فكرة الانتحار . وحين عاد إلى وطنه في نوفمبر سنة ١٨٦٨ بعد غيبة ثمانية عشر شهراً في ألمانيا كان لا يزال مريضاً ، ولذلك لم يتمكن بعد حصوله على بكالوريوس

يديده لم يعد علم النفس علماً فلسفياً أو علم الفلسفة العقلية بل غدا علماً تجريبياً .

وفي سنة ١٨٨٧ تزوج ، فبدأت في حياته مرحلة من الاستقرار العائلي بعد مرحلة القلق والارتجال الأولى وكان أول ثمرة لهذا الاستقرار كتابه : « أصول علم النفس » وهو كتاب ضخم صدر سنة ١٨٩١ في مجلدين كبيرين . وكان هذا الكتاب فتحاً جديداً في ميدان الدراسات النفسانية ، بسط فيه « جيمس » وجهة نظره في دراسة علم النفس دراسة مستندة إلى التجربة ومبنية على المعارف البيولوجية ، ووجه فيه العناية في ميدان علم النفس إلى الوظائف ، وتناول التفكير والمعرفة باعتبارهما أدوات نستعين بها في نضالنا في الحياة . ودافع « جيمس » في دراسته تلك عن إرادة الإنسان الحرة . وحين أتم كتابه في علم النفس ، بدا وكأن اهتمامه قد فتر في هذا المجال . ومع أنه كان أول من أنشأ معملًا لعلم النفس في الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد سئم العمل في المعمل وأحس أنه لا يوائم طبيعته ولا يلائم مزاجه ، وكأنما قد أدرك أن علم النفس يبدو موضوعاً هزليلاً أمام مشكلات الفلسفة والدين . وما لبثت تأملاته أن اتجهت إلى طبيعة الله ووجوده وخلود النفس وحرية الإرادة وقيم الحياة . وقد امتازت دراساته في هذا الميدان بالتجديد والانطلاق ، وذلك لأنه كان ميالاً إلى التأمل العملي مؤثراً تعمق التجربة النفسانية ، بعيداً عن الخوض في المناقشات الجدلية . فحين استهل تأملاته في الله اتجه اتجاهها مباشراً إلى التجربة الدينية يستطلع فيها طبيعة الخالق ، ويمم وجهه نحو البحث النفساني ليعرف معنى الخلود بعد الموت ، وقصد ميادين الاعتقاد والعمل ليثبت حرية الإرادة وليدحض النزعة الحتمية .

كان « جيمس » باحثاً منقبا في هذه الميادين كلها يسير في مسالك وعرة . تراءى له أن البقاء بعد الموت لا دليل عليه ، ولكن وجود الله تسجله التجربة

الدينية . فالله هو المنقذ في الملمات والله هو وحده الذي يفرج عنا في الأزمات . والحرية تراخ في ارتباط الأشياء بحيث أن المستقبل لا يتعين تعيناً لا مفر منه بالماض والحاضر . وعلى ذلك فالحرية تنقذ التاريخ من الهبوط إلى محض تكرار سقيم . وقد ظهرت آراؤه هذه فيما كتب من مقالات وما ألقى من محاضرات ، وجمعت فيما بعد في سؤلات هامة : « إرادة الاعتقاد » وقد ظهر سنة ١٨٩٧ و « خلود النفس » سنة ١٨٩٨ « وأحاديث إلى المعلمين في علم النفس وإلى الطلاب في بعض المثل العليا للحياة » سنة ١٨٩٩ ، « تنوع التجربة الدينية » ، وقد صدر سنة ١٩٠٢ .

وكانت دراساته في هذه الفترة تتصل من قريب ومن بعيد بهذا الجانب أو ذاك من جوانب المشكلة الدينية . ويبرز كتاب « تنوع التجربة الدينية » اتجاه صاحبه الواضح إلى التصدي للمشكلات الفلسفية الخالصة . وفي سنة ١٨٩٨ ، ألقى محاضرة في جامعة « كاليفورنيا » عن « التصورات العقلية والنتائج العملية » وصاغ المنهج المعروف بالمنهج البراجمي وقد انتفع بالقاعدة البراجمية في دراسته للتجربة الدينية ، ونظر في أفكار الصدفة والتغير والتعدد والتنوع والحرية . واستعان بتلك القاعدة كذلك في حملته التي شنها على المذاهب الواحدية التي تنظر إلى العالم على أنه كل موحد . وفي سنة ١٩٠٦ دعى ليحاضر في جامعة « ستانفورد » بكاليفورنيا ، وجمعت محاضراته في كتابه « البراجمية : اسم جديد لبعض طرائق قديمة في التفكير » . وفي هذا الكتاب الذي تلخصه فيما يلي عرض واضح لمنهج جديد في التفكير والعمل مستند إلى التجريبية الأصلية التي حمل لواءها « جيمس » متأثراً بأستاذه في الطبعيات « لويس أجاسيز » . والبراجمية تتوخى أن تدخل في الفلسفة المنهج العلمي التجريبي الذي ثبتت صحته وفاعليته في الكثير من الميادين العلمية ، وذلك بفضل حرصه على التحقق الفعلي من كل فكرة أو نظرية .

والبراجمية لا تعنى إلا بتوضيح المذاهب الفلسفية وتبسيطها لتعود بها إلى مضامينها الواقعية . ولكنها لا تقف منها موقف الحكم . فالحكم النهائي يظل دائماً أمراً شخصياً . فليس غريباً إذاً أن يفرض المنهج البراجمى بأصحابه إلى نتائج مختلفة غاية الاختلاف .

وقد جمعت محاضرات « جيمس » في « بوسطن » في كتابه « التجريبية الأصلية » . والنقطة الجوهرية في هذه المحاضرات ، هي أن العلاقات التي تجمع بين الأشياء وتفرق بينها قائمة في واقع الأشياء ذاتها . فوظيفة العلاقات هي من ثم وظيفة واقعية ، وعلى ذلك فلا معنى للقول بأن ثمة جواهر قائمة وراءها تنسرها وتفسر ما في العالم من تناقض وتناقض وتفرق . والتجريبية الأصلية اتجاه جديد يختلف عن اتجاه التجريبية الأنجلوسكسونية التي كانت تعتقد أن ثمة حقيقة تستخفى علينا .

وفي سنة ١٩٠٧ ألقى آخر محاضراته في جامعة « هارفارد » عن « المدخل إلى الفلسفة » . وفي ربيع العام نفسه ذهب إلى جامعة « كولومبيا » في نيويورك ليلقي محاضراته عن البراجمية ، فكأنما رسول هبط المدينة ، فقد تراحم الناس بالمناكب لرويته والاستماع إليه . وكان بذلك موضع حفاوة وموطن تكريم في كل مكان حل به ، وكان لهذا اللقاء الطيب أجمل وقع في نفس الفيلسوف . ودعى لإلقاء محاضرات في كلية مانستر بأكسفورد . ونشرت هذه المحاضرات في كتابه « عالم متعدد » Pluralistic Universe سنة ١٩٠٩ ، وفيه يعرض مذهبه عرضاً مبسطاً تهادى فيه المصطلحات الفنية التي تحتشد في كتابه « التجريبية الأصلية » . وفي كتابه « عالم متعدد » تفسير يتخطى حدود التجربة أحياناً وينطلق إلى آفاق الميتافيزيقا . ثم عاد « جيمس » إلى وطنه وواصل نشاطه بين إلقاء المحاضرات والاشتراك في المناقشات وعقد الندوات ، ولكنه كان يعاني العلة ويغالب المرض . وكان بين حين وآخر يخلو للتأمل

والكتابة ، وكان الأمل يراوده في الوصول إلى رأى حر في جميع المشكلات الفلسفية التي طالما أضجرت وأرقته . وقد بدأ تنفيذ المشروع في الفصول التي جمعت بعد وفاته في كتاب « بعض مشكلات الفلسفة » ، ولكن القدر عاجله قبل أن يحقق حلمه . ولعل القدر كان رحيماً « بوليم جيمس » ، فهو لم يكن من أنصار كتابة مذهب فلسفى كامل . فقد كان يؤمن بأن ثمة حقائق جديدة ينبغي ألا نكف عن البحث عنها ، فليس هنالك تمام أو كمال ، وليس هنالك آراء مقطوع بصحتها . وفي هذه الفترة التي بلغ فيها نشاط « جيمس » أوجه والتي اشتدت عليه فيها آلام المرض ، جمع بعض دراسات متفرقة له ونشرها في كتاب « معنى الحقيقة » سنة ١٩٠٩ . ولم ينقد « جيمس » الأمل في الشفاء ، فقرر أن يحاول العلاج في « مانهايم » بألمانيا . فأبحر مع زوجته إلى هناك في ربيع سنة ١٩١٠ . ولكنه في أوروبا انشغل مع الناس عن الانصراف إلى العلاج والخلود إلى الراحة ، وعاد مرة أخرى إلى وطنه ، وأقام في منزله الريفى حيث وافاه الأجل في أغسطس سنة ١٩١٠ ، وقد خلف للإنسانية تراثاً فكرياً ضخماً وتياراً فلسفياً متجدداً ما برح متدفقا إلى أيامنا هذه .

عرض عام لكتاب البراجمية :

العنوان الكامل لكتاب البراجمية : البراجمية —

اسم جديد لطرائق قديمة في التفكير « Pragmatism : A New Name for some Old Ways of Thinking »

وهو يضم مجموعة من المحاضرات ألقيت في نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٠٦ ، وفي يناير سنة ١٩٠٧ ، وقد وردت في الكتاب على الترتيب التالى : ١ — المأزق الحاضر للفلسفة . ٢ — ما تعنيه البراجمية . ٣ — بعض المشكلات الميتافيزيقية على ضوء النظرة البراجمية . ٤ — الواحد والكثرة . ٥ — البراجمية والحس المشترك

٦ - التصور البراجمى للحقيقة . ٧ - البراجمية والمذهب الإنسانى . ٨ - البراجمية والدين .
وفىما يلى تلخيص للكتاب نتوخى فيه عرض الأفكار الأساسية التى تشكل الموقف الفلسفى العام « لوليم جيمس » .

البراجمية منهج يمزج الفكر بالحياة :

ليس ثمة قيمة لفكرة أو لنظرية ، إلا إذا تيسر لنا تطبيقها تطبيقاً مباشراً على الوقائع التى نلاحظها . فإذا طبقنا هذا المنهج العلمى على التجربة الإنسانية أمكننا أن نصل إلى القاعدة البراجمية ، أعنى أن نبحث عن المعنى الواقعى للفكر أو الاعتقاد وذلك بأن نلوذ بالوقائع الجزئية وننظر فى صميم النتائج الحاسمة التى تنجم عنها فى تجربتنا . ويتجنب المنهج البراجمى التورط فى حمأة اللفظية ، وذلك بفحص كل فكرة وكل خطوة ، ويستوى فى ذلك أبسط التصورات اليومية وأعمق الأفكار الفلسفية على ضوء النتائج التى تتضمنها فى لحظة مستقبلية وفى جانب من جوانب الحياة العملية .

ومن الملاحظ أننا نتبع هذا المنهج عينه بالنظر فى حياتنا العامة وفى ميدان العلم ، حين نتحرز من الانسياق انسياقاً أعمى وراء نظرية خلافة قد تنضى بنا إلى الخطأ . ولذلك فلكى نستوثق من قدر نظرية من النظريات نحاول أن نتخيل أنها مطبقة فعلاً فى العمل حتى يتسنى لنا رؤية ما عسى أن يكون هنالك من نتائج لتطبيقها ، ونحتفى بها على قدر ما تأتى به من نتائج عملية خالصة . ونحن نلاحظ أن أشد نظريات الطبيعة أو الفلك تعقيداً يحكم عليها فى نهاية الأمر بمقتضى نفعها فى التنبؤ بالحسوف أو فى تفسير ظواهر كهربية وما على غرار ذلك .

ومن ثم فالبراجمية تتوخى أن تدخل فى الفلسفة المنهج العلمى التجريبى الذى ثبتت فاعليته لحرصه على التحقق الفعلى من كل نظرية .

ومن البداهة أننا لا نتبع فى الفلسفة نفس الطرائق التى تتبعها فى الطبيعة أو فى الكيمياء . ولكننا نطبق المبدأ عينه ، مبدأ التحقق العلمى من كل فكرة أو فرض ، ولنسق للقارئ مثلاً له دلالته فى هذا الصدد : إن ثمة نزاعاً محتدماً بين المادية من ناحية والروحية من ناحية أخرى : هل هذا العالم ثمرة التقاء ذرات فى الزمان والمكان ، أو أن ثمة خالقاً لظواهر العالم جميعاً وهو عقل خالص وخير بحث ، يشكل الأحداث بمشيئته ويحرك الظواهر بإرادته ؟ تلکم مشكلة شائكة خاضت فيها التأملات ودار الجدل حولها فى مجلدات . فإذا واجهنا هذه المشكلة بالمنهج البراجمى لوضعناها فى السؤال البسيط التالى : ما الفارق بين اختيار هذا الرضى أو ذاك على ضوء تجربتنا العملية ؟ لا يلوح أن هنالك فارقاً . فالعالم وجد والحقيقة القائمة التى لا مريّة فيها أنه موجود ، سواء أكان ثمرة التقاء ذرات أو من صنع خالق عظيم جبار . إن هذا لا يبدل من الواقع شيئاً . فنظرياتنا على هذا النحو أو ذاك لن تستطيع تغيير شيء فى هذا العالم الذى يمزج فيه الخير بالشر . فالعالم لا يكون خيراً أو شراً لأنه ولید التقاء ذرات ، ولا يكون خيراً أو شراً لأنه مخلوق ، حينئذ تستوى المادية والروحية ، ولا يكون لإحدهما فضل على الأخرى . بيد أن حديثنا هنا يقتصر على الماضى فحسب ، ويختلف الأمر فيما يتصل بالمستقبل . فالمادية تجعل العالم مرهوناً بنشاط قوى عمياء ، ومن ثم لا يتاح لنا الأمل فى أن يستقر شيء ما على الخير ، وفى أن تقوم أخلاق ثابتة ، فالبداية عدم والنهاية عدم . أما الروحية فتضع زمام الأمور بين يدى قوة عاقلة ذات أهداف أخلاقية سامية ، وهى على ذلك تزودنا باليقين فى القيم الروحية . تلك القيم التى تحفظ للإنسان كبريائه ، وتصون له كرامته ، وتنقذ الحياة الإنسانية من الهلاك : وحتى إذا هلك العالم المادى فإن الله يتولانا ويرعانا ويخلق لنا بمشيئته عالماً آخر يتيح لملئنا العليا أن نتحقق . وعلى

ذلك فالروحية تثبت فينا الأمل ، فهي مذهب الثقة والشجاعة . وهنا نلمس الفارق العملي بين النظرتين في حياة من يتبعهما : أمل في جانب ويأس في جانب آخر . وقد يعترض معترض بأن وعود الروحية وعود نائية بعيدة عن التحقيق ، وهي لذلك لا تجذبنا إليها ولا تستأثر منا بانتباه . ويحجب « جيمس » على ذلك بأن من يعترض هذا الاعتراض يغفل أن الطبيعة البشرية لم تتوقف عن الاهتمام بالقضاء والقدر وعن العناية بكل ما يتصل بنهاية العالم ومصير الإنسان . ففي صميم كل فرد تصور عميق يتصل بهذه الغايات ، ويؤثر هذا التصور ولا ريب في سلوكه وله نفوذ بالغ في تحديد موقفه من مجرى الأحداث . ومن ثم فالخلاف بين المادية والروحية خلاف يغوص إلى أعماق حياتنا ، ففي المادية إنكار وتشتت ، وفي الروحية تبرير للوجود وتماسك أمام نكبات الدهر ، ومد في حبل الأمل للتجاوب مع التجارب الحية الأصيلة ، - تجارب الحياة الإنسانية ، وهي لا تكاد تخلو من لون ديني وأخلاقي ، وهي تجارب تلهمنا في حياتنا وتلهم الحضارة الإنسانية كلها .

وتفادى البراجمية التورط في الجدل في هذه الموضوعات ، ذلك الجدل الذي طالما تحمس له أنصار هذا المذهب أو ذاك فأفاضوا في البرهنة على وجود الله أو على عدم وجوده ، وخلود النفس أو عدم خلودها . تطوى البراجمية هذه المحادلات طياً وتضع المشكلة على أساس جديد ، لا من حيث صلتها بالعقل والمنطق بل من حيث علاقتها بالأخلاق ، فهي تلقى عليك هذا السؤال : هل تولى مثلك العليا الروحية قدراً عظيماً من عنايتك واهتمامك ؟ وهل تعتمد أن قلب العالم مشغول أيضاً بها معنى بتحقيقها ؟ أو هل ترى أن تاريخ البشرية وما اكتشفه من فضائل ، وما حدث فيه من قتال ، وما اتصل به من صراع ، من أجل الخير ، هل تعتقد أن هذا التاريخ لا ينطوى إلا على

اضطرابات عارضة يقف منها للعالم موقف لا مبالاة ، ومن ثم تبوء هذه العهود جميعها بالفشل وتنتهي إلى العدم ؟ لنأخذ الموقف الأول فأنت روحي ، ولئن أثرت الموقف الثاني فأنت مادي . ولكن ما التعارض بين الموقفين وما وجه النزاع بصددهما ؟ دَعْ كُلَّ إنسان يؤثر الجانب الذي يرتضيه أعني الجانب الذي يحقق له السعادة في نفسه ، ويهيئ له حياة راضية يعيش فيها بمقتضى ما اقتنع به ، واترك للمستقبل أن يحكم على موقفه بالصواب أو بالخطأ .

من هذا نرى أن البراجمية لا تعنى إلا بتوضيح المذاهب وتبسيطها لتعود بها جميعاً إلى معانيها العملية ومضامينها الواقعية . ولكنها لا تقف منها موقف الحكم ، فالحكم النهائي يظل دائماً أمراً شخصياً . ومن هنا قد يصل المنهج البراجمي بأصحابه إلى نتائج مختلفة فيما بينها غاية الاختلاف .

وقد حذر أصحاب المذاهب الفكرية المجردة من الخطر الكامن في الأخذ بالمنهج البراجمي أي في الحكم على الأفكار بنتائجها العملية . وتساءلوا : كيف نحكم على الأفكار السامية التي تتخطى كل تجربة بموازين مستمدة من التجربة ؟ وكيف نسوغ لأنفسنا إخضاعها لتصنيفات عملية وهي أسمى من كل نظرة فردية ، وأبعد عن كل نزوة بشرية ؟

ويحجب « جيمس » على هذا بأن محور الموضوع يتمثل على الدقة فيما إذا كان عقلنا قادراً على الوصول إلى مثل هذه الحقائق النهائية أو عاجزاً قاصراً في هذا المجال . ولا تعدو وظيفته أن تكون عوناً في قهر العقبات العملية التي تصادفنا في حياتنا اليومية . ومساعدتنا على التأدي إلى غايتنا في الحياة التي نجد أنفسنا قد دفعنا إلى خضوعها دفعاً لا حيلة لنا فيه . تلك هي على الدقة الدعامة التي تجعل للبراجمية سبق على كل مذهب فكري مجرد ، فهي ملتصقة بالحياة معنية بالتجربة متجهة إلى الواقع .

ويلوح أصحاب المذاهب الفكرية المجردة بشعارهم التقليدى ، وهو أن الإنسان عاقل ، مهمته أن يعرف كيف ينقل الواقع بأفكاره بعد تنقية هذه الأفكار من كل عنصر شخصى وتنحية كل اعتبار ذاتى . فأول واجب على الباحث - وهو واجب مقدس - هو أن ينسى نفسه تماماً وهو يسير فى طريق البحث عن الحقيقة وأن يتحرر تحرراً تاماً من نزعاته ويتخلص تخلصاً مطلقاً من ضرورات حياته ورغباته . ذلك لأنه ينبغى البحث عن الحقيقة أنقى ما تكون دون النظر إلى نتائجها ومعقباتها . فنحن إذا تركنا عواطفنا وإذعالاتنا أياً كان حظها من النبل والسمو ، فإنها ستؤثر على تكبرنا وتسد علينا طريق الوصول إلى الحقيقة المطلقة . إن نداء القلب نداء خداع موه ، فينبغى للعقل أن يتحرر منه ويتجاهله . والحقيقة من حيث هى اتفاق الفكر مع الموضوع ، تغدو قريبة المثال إذا عكس الفكر موضوعه دون أن يتأثر أدنى تأثر بأهواء المفكر وميوله .

ويختلف التصور البراجمى لطبيعتنا اختلافاً تاماً عن هذا التفسير . ذلك لأن الإنسان إذا كان فى جوهره كائنًا عاطفياً فعلاً مناضلاً ينحت طريقه فى صخر التجربة ، ويواجه مشكلات الحياة وعقباتها الواحدة تلو الأخرى فإن ملكته العاقلة المجردة أبعد عن أن تكون غاية فى ذاتها ، وإنما يكتسبها من ثنايا النضال من أجل الحياة ، وتعد بذلك أداة تمكنه من التخلص من المآزق التى تكتنفه من كل جانب .

ويمضى بنا هذا إلى القول بأننا لا نعيش لنفكر كما ينادى بذلك أصحاب المذاهب الفكرية المجردة؛ بل نفكر لنعيش . وتبعاً لهذه الطريقة فى النظر إلى الأشياء وهى طريقة مستوحاة من البيولوجيا التطورية التى تنسب السبب فى وجود وظائفنا إلى نفعها فى حياتنا ، نقول تبعاً لهذه الطريقة نجد أن أفكارنا لا تعدو أن تكون وسائل فعالة لمواجهة ضرورات الحياة ومطالبها ، وعلى

ذلك فحقيقة الأفكار وفاعليتها تستويان فى نظرنا . إن فكرة ما لا تكون صادقة أو كاذبة ، صحيحة أو باطلة إلا بقدر صلاحيتها أو عدم صلاحيتها ، موافقتها أو عدم موافقتها للهدف الذى رسمناه لها من حيث أنها تفضى بنا أولاً تفضى إلى النتائج المرغوبة . وينبغى على ذلك أن حقيقة فكرة ما أو نظرية ما تنتمى فى واقع الأمر إلى رغباتنا ، وتقاس قيمتها بمبلغ ما تحققه من نفع ، فالمعيار الوحيد للحقيقة هو ما تحققه حين نطبقها فى حل المشكلات التى تواجهنا ، وفى استعادة توازن أذهاننا وانسجام شخصياتنا .

التصور البراجمى للحقيقة :

يقال إن « الحقيقة » خاصة ملازمة للأفكار . فصدق الأفكار أى حقيقتها يعنى موافقتها للواقع ، كما أن كذبها أو بطلانها يتمثل فى عدم موافقتها للواقع ، والبراجمية والنزعات التجريدية تلتقى عند هذا التفسير « للحقيقة » . بيد أن البراجمية سرعان ما تفرق عنها على معنى « الواقع » ومعنى « الموافقة » . وطبقاً للقاعدة البراجمية تتساءل دائماً : لنفرض جدلاً أن فكرة ما أو معتقداً ما صادق ، فما الفرق العملى الذى يؤدى إليه صدقه فى الحياة الواقعية ؟ وأية تجارب تختلف عن تلك التجارب التى نصل إليها إذا كانت الفكرة باطلة أو المعتقد باطلا ؟ وباختصار ما قيمة المعتقد فى العمل وما أهميته حين نزنه بميزان التجربة ونقيسه بمقياس الواقع ؟ والإجابة البراجمية على هذا حاضرة : الأفكار الصادقة هى التى يمكننا التثبت من صحتها ، والأفكار الكاذبة هى التى لا يمكننا التحقق من صحتها . فالتحقق بالفحص والتحليل هو الذى يحدد الحقيقة ويؤلف لبها .

فإذا قبلنا هذا التفسير للحقيقة لانبنى على هذا أنها ليست خاصة ملازمة لفكرة صادقة ، ولكنها شئ يحدث للفكرة فتغدو الفكرة بفضلها صادقة . ومعنى

ثمة تحققاً مباشراً في نهاية المطاف يسند هذا التحقق غير المباشر .

و حين يفحص « جيمس » العلوم يرى أن أعظم مهمة تهض بها في ميدانها هي الوصول إلى نظريات يمكن أن تزيد فائدة فعالة : نظريات يمكن أن تكون وسيطاً بين حقائق سابقة وبين تجارب جديدة . وينبغي للنظرية العلمية ألا ترزعزع المعتقدات السابقة إلا في أضيق نطاق ، وأن تفضي إلى نتيجة يمكن التحقق منها . والنظرية التي تعمل - بالمعنى البراجمى - يجب أن تصيب الهدفين معاً . وحين يشتد التنافس بين نظريتين في ميدان العمل ويستويان في التقدير ، فإن المفاضلة بينهما تقوم على أساس الأسلوب والاقتصاد في الجهد . ذلك لأن الحقيقة في العلم هي تلك التي تزودنا بأكبر قدر من الإشباع لاهتماماتنا .

وقد انتقد أعداء البراجمية هذا التفسير « الجيمسى » للحقيقة انتقاداً مرّاً وحملوا عليه حملة عنيفة ناعين عليه السفسطة والمغالطة . « على أن جيمس » يرى أن الهجوم على التصور البراجمى للحقيقة ليس في صميمه هجوماً على الوقائع التي تشملها الحقيقة بقدر ما هو هجوم على ما تعنيه كلمة حقيقة ذاتها . فالبراجميون حين يتحدثون عن الحقيقة يعنون بها العمل الذي تقوم به ، بينما يعنى خصومهم الموضوعات التي تدل عليها ، وشتان بين النظريتين .

البطولة في عالم متعدد :

في كل إنسان ذخائر من الطاقة لا يمكن أن تستثمرها حياة هادئة رتيبة . وإما توقظها وتثيرها حياة متدفقة متجددة التيار . فهنا في معمعة هذه الحياة نحس فعلاً بأننا نعيش ذلك لأننا خلقنا للنضال ، ومن أجل غاياتنا يشتعل حماسنا ويضطرم نشاطنا . فينبغي أن

هذا أن الأحداث هي التي تجعل الفكرة صادقة . فحقيقة الفكرة أو صحتها أو صدقها تتمثل في عملية التحقق منها . فإكانه هذا التحقق على النمط البراجمى ؟ نحن نعيش في عالم وقائع ، وهذه الوقائع قد تكون نافعة وقد تكون ضارة . والأفكار التي تنتبأ سلفاً بما نتوقعه من واقع معين هي أفكار حقيقية . وامتلاك الحقيقة ليس غاية في ذاته وإنما هو وسيلة إلى إشباع اهتماماتنا المتجددة . ولما كنا دائماً في حاجة إلى إشباع اهتماماتنا فإن واجبنا الأول أن نواصل السعى وراء الأفكار الحقيقية . فالقيمة العملية للأفكار الحقيقية تستمد من أهمية موضوعاتها لنا .

ونحن نخزن الأفكار التي تثبت قيمتها في الحياة العملية في مستودع ذكرياتنا . وقد ننتفع بها في زمان تال حين تمثل المناسبات التي تلائمها ، وحينئذ نقول عن هذه الفكرة : « إنها نافعة لأنها حقيقية » أو « إنها حقيقية لأنها نافعة » . فهاتان القضيتان سواء في معناهما ومضمونهما وهو أن ثمة فكرة قد تحققنا من صحتها . « فصفة الصدق » أو « الحقيقة » التي ننسبها للفكرة ننسبها لها حين نبدأ بها عملية التحقق ، وصفة النفع تدل على الفكرة حين تؤدي وظيفتها في التجربة .

ومع ذلك فليس ميسوراً أن نقوم بالتحقق تحققاً مباشراً من جميع الأفكار . ومن هنا ففى وسعنا أن نجيز صدق فكرة التحقق صحتها تحققاً غير مباشر ، حينما تكون هناك ملاسبات تدل على صحتها دون أن نتمكن من الاستيثاق استيثاقاً مباشراً من ذلك . وعلى هذا فنحن نسلم بالقضية « اليابان موجودة » مع أن أغلبنا لم يزر هذه الجزر . وكذلك الشأن في كثير من المعتقدات ، نجيزها حيث لا نلتقى بمعتقدات تناقضها . مثل ذلك مثل أوراق النقد تظل صالحة طالما كان الناس جميعهم يتعاملون بها . وليس يخفى أن

نلامس الواقع فنعيش حياتنا ونساهم فيها فنطبعها بطابعنا ، وبذلك يغدو كل منا بطلا .

لذلك نرى « جيمس » يدافع في حماس عن السلام والحرية . وهو لذلك يشيد بفضائل النضال والشجاعة والتضحية والصبر على الضيم واحتمال الاستبداد . وهو يذهب إلى أن الحرب ليست جائزة أخلاقياً ، فمن الخير لحضارتنا أن تقوم على أساس من التربية المتعادلة فتصون للجنس البشرى خصوصيته . والاعتدال الأخلاقى يتطلب منا أن نكون أبطالاً في حياتنا نبحث عن البساطة ونبتعد عن الترف فنعمل دائماً على تقدم فكرى لا ينقطع .

إن « جيمس » يدعو كلا منا أن يكون بطلاً في ميدانه ، وللبطولة ثمنها في النجاح وفي الفشل . وفرص النجاح مهياة وقد تكون قليلة ، ولكن فرصة واحدة للنجاح قد تغنى . أن الهدف الذى نستهدفه يستأهل اذن المخاطرة ويستحق التضحية حتى ولو باءت جهودنا بالفشل .

و « جيمس » لا يتراجع على أى وجه من الوجوه أمام إمكانية أن يجد نفسه بين أولئك الذين يندهم عالم متعطل جرى عليه التحسين والتقدم . فبينما الخلاص فى « الواحدة التفاضلية » هو فى جوهره خلاص كل شاملى ، فان الخلاص فى « التعددية » يصيب البعض فقط دون البعض الآخر تبعاً لموقف كل فرد وعلاقاته بالآخرين . ومن الممكن ، إن لم يكن من المحتم ، ألا يكون هذا الخلاص كاملاً . فبعض الأفراد قد لا يصلحون فيحق عليهم أن يستبعدوا . وقد يكون الكمال قابلاً للتحقق ولكن لهذا التحقق ثمناً هو الاختيار والتضحية ، وهنا تتمثل البطولة ، وقد كان البيوريتان القدائى متأهين لأن تحل بهم اللعنة إذا كان ذلك من أجل مجد الله . وتلك عظمة فى النفس عند المؤمنين قد تكون من نصيبنا ، وينبغى لنا حيث يستلزمها خلاص العالم أن نقبل التضحية من أجلها . إن عالمنا مغامرة

حقيقية تنطوى على أخطار ، ومع ذلك فنحن لا ندير ظهورنا له . وإذا كان على كل منا أن يغرق مع السفينة قبل أن يصل إلى بر الأمان فإنه لن يتخلى مع ذلك عن المغامرة ، فأخرون قد حالفهم التوفيق ووقف إلى جانبهم الحظ السعيد فكتب لهم النجاح . ألا ينبغى لكل منا أن يوطد نفسه ويوجه جهوده لتحقيق المثل الأعلى الأخلاقى ، وأن يخاطر بحياته من أجل انتصار مثله . ؟

البراجمية والدين

لقد كان « جيمس » حريصاً على أن يتجه فى وصف التجربة الدينية إلى استخلاص قيمة الدين وتعريف مغزاه . وقد كان يرى أن موقف أنصار المادية موقف بعيد عن الإنصاف . واننا لانستطيع أن نحكم على قيمة الدين بوجه عام أو دين معين من الأديان بوجه خاص من مجرد النظر إلى منابعه وأصوله . بل ينبغى لنا أن ننعم النظر فى نتائجه ، وأن نتبع آثاره العميقة فى الحياة الأخلاقية للأفراد والجماعات . ان تجربة دينية عميقة لتزود صاحبها بثروة لاتنفد من الاعتزاز بالكرامة والجلد على الكفاح وتقدير المحبة والسلام ، والسعى للسعادة ، وكل هذه خوافر لتقدم الإنسانية . ونحن لا ينبغى أن نجحد فضل الأنبياء والقديسين ، فقد كانوا حملة المشاعل فى كل تقدم أخلاقى وارتقاء اجتماعى .

ويثير فينا الدين الشغف إلى التساؤل ، وهذا التساؤل يضع أمامنا المشكلة الفلسفية . فنحن نلاحظ أن جميع الأديان تفترض أن العالم المرنى جزء من عالم أوسع هو العالم الروحى . والعالم المرنى عالم أرضى يستمد مقوماته من العالم الروحى . وأن الواجب الأصل للإنسان أن يوائم بين نفسه وبين هذا العالم الأسمى عالم الروح . ومن هنا كانت العبادة وسيلة لتحقيق هذه الغاية . والعبادة تعد بحق عملاً فعالاً نستجلب به الطاقة الروحية من ذلك العالم الأسمى ، وهذه الطاقة

على هذا الأساس يمكن لهذه الفلسفة أن تنهض على دعائم التجريبية الأصيلة فيحدوها الأمل في أن تظهر يوماً ما بتأييد أولئك الذين لا يدينون بدين من الأديان . فنحن نلاحظ أن أولئك الذين ولدوا وقد حرموا نعمة البصر يقرون بوقائع البصريات . وكما أن البصريات ما كان يمكن أن يكون لها وجود لو لم تكن تجارتها قاصرة على المبصرين فكذلك الشأن في علم الأديان فهو ينهض على شهادة المتدينين . ولن يكون في استطاعة هذا العلم أن يقرر في نهاية الأمر ما إذا كانت هذه التجارب نفسها تجارب وهمية أو واقعية . فالتساؤل عن واقعية هذه التجارب تساؤل تتعذر الإجابة عليه علمياً ، ومن ثمّ فعلينا إما أن نتركه على حاله أو نحسم فيه بفعل من أفعال الإيمان الشخصي .

ولم يتردد « جيمس » في الحسم بفعل من أفعال الإيمان ، وفي تأييد قيمة ميتافيزيقية للدين . وهذا الموقف يتفق مع تجريبيته الأصيلة المتحررة ، إذ لا تهره الألفاظ ولا تنطلي عليه ادعاءات العلم الحديث بصدد مقومات التجربة الحقة . « فـجـيـمـس » يسلم بواقعية « الأنا » والإيمان فعل من أفعال « الأنا » و « الأنا » محور كل تجربة دينية . وفعل الإيمان واسطة العقد بين « الأنا » والعالم الأسمى عالم القيم . ولا يفوته أن يستنكر اندفاع أنصار العلم الحديث نحو طمس معالم الشخصية في الإنسان والقضاء على فرديته ، والنظر إليه على أنه مجموعة من الإحساسات المتبددة ، وعلى ذلك فليس للدين في تقديرهم أهمية ، وهو لا يعدو أن يكون خرافة وأسطورة .

ولكن « جيمس » يرى أن التجربة الدينية قطعة حية من الواقع وأنها تجمع بين القلق والخلاص : قلق من العالم الأرضي ، وخلاص يستبان في طموح الأنا إلى ما هو أسمى . فالإنسان يعيش على الأرض ويتطلع إلى السماء ، وفي هذا دفع لعجلة التقدم وإذكاء لحيوية البشر ، وبث للأمل في حنايا النفوس .

تعيّننا على الحياة في الأرض وتدفعنا إلى النهوض بالمجتمع . فإلى أي مدى يمكن أن يكون لهذه المعتقدات قدرها ووزنها ؟ هل هي لاتخرج عن كونها انطباعات ذاتية ، مجرد أوهام تنشب بها لنبرر القيم التي نسعى لتحقيقها ، أم هي تطابق بالفعل حقيقة واقعية موضوعية ؟ اتجه المؤمنون في الإجابة على هذا التساؤل اتجاهين مختلفين في الطريق ومتفقين في الهدف . أولهما الاتجاه الصوفي وثانيهما الاتجاه العقلي . أحدهما يذهب إلى أن التجربة الصوفية التي يمارسها الإنسان تصونه من الشك وتعصمه من الانحراف . بيد أن هذه التجربة لا قيمة لها في شخص لم يمارسها . والاتجاه العقلي يعتمد على الاستدلال والبرهنة ، وقد اتبع هذا الاتجاه أساتذة اللاهوت والفلاسفة المثاليون ، وقد حاولوا جميعاً أن يلبسوا للدين سنداً عقلياً بحثاً . إلا أن « جيمس » يلاحظ أن الحجج العقلية لم تقنع أحداً ، وأنها لم تستهوا إلا أفئدة أولئك الذين مارسوا من قبل تجربة صوفية بالفعل .

ويرى « جيمس » أنه ينبغي لنا بناء على هذا أن نقر بالحقيقة الواضحة التي لا تحتل جدالاً ، أعني بها أن ليس ثمة من سبيل لإقامة الدين على أساس عقلي ، والتماس دعامة موضوعية للتجربة الدينية والمعتقدات المرتبطة بها . بيد أنه ليس هنالك كذلك وسيلة لرفض هذه المعتقدات ، أو البرهنة على أن التجربة الصوفية لا تمكن صاحبها من الاتصال بحقيقة أسمى . فهل يعني هذا من ثمّ أن لا مجال للعقل في حل المشكلات الدينية !! إن « جيمس » لا يستبعد الاستدلال العقلي من هذا الميدان ولكنه يبين لنا في وضوح أن دور العقل دور ثانوي ، ذلك لأن الفكر هنا يتلو وقائع التجربة المباشرة . ومن ثمّ فالفلسفة الدينية تبدأ من الوقائع الدينية التي أجزأها وتقبلناها ورضينا عنها كما هي . وعلى هذه الفلسفة أن تعنى بتصنيف هذه الوقائع والتجارب وتحليل مضامينها ، وأن تستند في ذلك إلى الاستقراء والنقد .

نصوص مختارة من كتاب « البراجمية » (١) :

الإرادة الحرة

تعني الإرادة الحرة من زاوية البراجمية أن ثمة جيدةً في العالم ومن حقنا أن نتوقعها في عناصره الخافية وفي ظواهره البادية على حد سواء . فالمستقبل قد لا يكون تكراراً للماضي ومحاكاةً له . ولكن هل يمكن لنا أن ننكر أن هنالك محاكاة على الجملة ؟ ففى الطبيعة اتساق عام بيد أن الطبيعة قد تكون متسقة اتساقاً تقريبياً فقط . والأشخاص الذين نمتّ فيهم معرفة الماضي نزعة تشاؤم (أو أثارت فيهم الشكوك بصدد الطابع الخير للعالم ، وهى شكوك تغدو يقينيات لو افترضنا أن العالم ثابت على حاله ثباتاً أزلياً) قد يرحّبون بالطبع بالإرادة الحرة كنظرية تتيح النظر إلى العالم على أنه قابل للتعدّل إلى ما هو أفضل . فهذه النظرية تذهب إلى أن التحسن أمر ممكن على الأقل ، بينما الحتمية تؤكد لنا أن فكرتنا العامة عن الإمكانية متولدة من جهلنا ، وأن الضرورة والإستحالة يتحكمان في مصائر العالم . (ص ٨٤)

الحس المشترك :

.... يبدو الحس المشترك مرحلة متحدّدة تحدّداً كاملاً في فهمنا للأشياء ، وهى مرحلة تشبع الأغراض التى من أجلها نفكر بطريقة ناجحة على نحو فذّ . فالأشياء توجد حتى حين لا نراها ، و «أنواعها» توجد أيضاً ، وصفاتها وهى التى تعمل بها وبفضلها نمارس نشاطنا عليها توجد كذلك . هذه المصاييح تسقط صفة الضوء فيها على كل شئ في هذه الحجرة ، ونحن نقطع هذا الضوء حين نضع في

طريقه ستاراً عاكساً . وهذا الصوت الصادر من بين شفتيّ هو نفسه الذى يمضى إلى آذانكم . والحرارة المحسوسة للنار هى التى تسرى في الماء الذى نغلى فيه بيضة ، ونحن نستطيع أن نحيل الحرارة إلى برودة بأن نسقط في الماء كتلة من الثلج . عند هذه المرحلة من الفلسفة وقف جميع المفكرين غير الأوروبيين بلا استثناء . فهى عندهم جميعاً تكفى لتحقيق الغايات العملية للحياة . أما عندنا فالأذهان التى ضللها التعلم ، كما يدعوها باركلى ، هى وحدها التى ارتابت في ألا يكون الحس المشترك صادقاً صدقاً مطلقاً . (ص - ١٢٠)

التصور البراجمى للحقيقة :

نحن نعيش عالم حقائق واقعية يمكن أن تكون نافعة كما يمكن أن تكون ضارة دون ما تحديد . والأفكار التى تدلنا على ما نتوقعه من نفع أو ضرر ، تعد أفكاراً صادقة في هذا النطاق المبدئى للتحقق ، ومن ثم فن الواجبات الأولى للإنسان تتبع مثل هذه الأفكار . إن امتلاك الحقيقة ، أبعد عن أن يكون غاية في ذاته ، ليس إلا وسيلة أولى نحو إشباعات حيوية أخرى . فلو تُهتُ في الغابات واستبدتْ بي الجوع ووجدتْ أماناً دَرَباً ، فن غاية الأهمية أن يتجه خاطرى إلى أن ثمة منزلاً يقطنه أناس عند نهاية هذا الدرب ، لأننى لو فعلت ذلك وسرت على هذا الدرب إلى نهايته لأتقدت نفسى . فالخاطر الصادق نافع هنا لأن المنزل الذى هو موضوع هذا الخاطر نافع . والقيمة العملية للأفكار الصادقة تستمد على ذلك أولاً من الأهمية العملية لموضوعاتها بالنسبة لنا . ومع ذلك فموضوعاتها ليست هامة في جميع الأوقات . فقد لا يكون للمنزل نفع لى في ظرف آخر ، ومن ثم ففكرتى عنه وإن كانت قابلة للتحقق إلا أنها غير ملائمة عملياً ، ومن الأفضل أن تظل كامنة . ولكن

(١) انظر William James : Pragmatism . (Meridian Books . New York , 1955) .

ما دام أى موضوع يكاد أن يكون هاماً فى يوم ما ، فإن فائدة الزود بذخيرة عامة من الحقائق الزائدة عن المطلوب ، ومن الأفكار التى ستكون صادقة فى مواقف ممكنة فقط لفائدة جلية . فنحن نخزن هذه الحقائق الزائدة عن الحاجة فى ذاكرتنا ... وحين تغدو حقيقة منها ملائمة عملياً لمطلب من مطالبنا العاجلة ، فإنها تمضى من مخزنها البارد لتعمل فى الحياة وينمو اعتقادنا فيها ويصبح اعتقاداً فعالاً . ويمكنك أن تقول عنها تمتد إما « أنها نافعة لأنها حقيقية » أو « أنها حقيقية لأنها نافعة » فهاتان العبارتان معاً تعنيان على الدقة نفس الشيء ، أعنى أن هنا فكرة تحققت ويمكن التثبت منها . (ص ١٣٤ - ١٣٥) .

البراجمية والدين :

هَبْ أن فاطر الكون وضع الأمر بين يديك قبل الخلق قائلاً : أنا بسبيل صنع عالم لا يقين لى فى نجاته ،

عالم كماله مشروط بشرط واحد ، هو أداء كل فرد أقصى ما يستطيع ... وأنا أتيح لك الفرصة أن تأخذ نصيبك فى عالم كهذا ، وأنت تعلم أن نجاته غير مضمونة : تلکم مغامرة حقيقية فيها خطر واقع ، بيد أنها قد يتحقق لها الوز من ثنايا هذا الخطر . إنها لحظة اجتماعية لعمل تعاوى يجب الهوض به ، فهل تنضم إلى هذا العمل ؟ هل تثق فى نفسك وفى غيرك ثقة تمكنك من مواجهة المخاطرة ؟

وهل تجد نفسك إذا عرضت عليك المساهمة فى عالم كهذا تشعر شعوراً جاداً بأنك مسوق إلى نبذها لأنها ليست مأمونة العاقبة ؟ هل تقول إنك تفضل أن تفرق فى سبات العدم الذى استيقظت منه مؤقتاً استجابة لصوت مزاجك على أن تكون قطعة من عالم هو فى جوهره عالم متعدد غير معقول ؟ ... الحق أنك لو كنت إنساناً سوياً لما فعلت شيئاً من هذا القبيل . (ص ١٨٧) .

